

الإيديولوجيا التفسيرية-هيمنة المركز وتعدد الإيديولوجيات

الاسناد الدكتور عقيل عبد الحسين

half@uobasrah.edu.iq

جامعة البصرة - كلية الآداب

الباحث ماهر حميد عبد

Maherhameed974@gmail.com

جامعة البصرة - كلية الآداب

Interpretive ideology: Center domination and plurality of ideologies

**Prof.Dr. Aqeel Abdul Hussein
Researcher Maher Hameed Abd
Basra University - College of Arts**

Abstract:

The main function of ideology is to justify the domination of power over society; Because the dominant ideological ideas of any society are nothing but the ideas of the ruling class. Ideology plays an important role in reproducing power on the one hand, and in shaping and imposing social classes on the other hand. Ideology is one of the central concepts in the cultural analysis of discourse, because it provides an understanding of social reality, so it has received the attention of cultural criticism. As well as its contribution to the establishment of unequal social relations linked to power and the control, exploitation and domination it imposes on social classes.

Keywords: (Authority, ideology, identity, hegemony, interpretation, centrality).

الخلاصة :

تكمّن وظيفة الإيديولوجيا الأساسية في تسويغ هيمنة السلطة على المجتمع؛ لأن الأفكار الإيديولوجية السائدة لأي مجتمع ماهي إلا أفكار الطبقة الحاكمة تؤدي الإيديولوجيا دوراً مهماً في إعادة إنتاج السلطة من جهة، وفي تشكيل الطبقات الاجتماعية وفرض الهيمنة عليها من جهة أخرى.

وتعد الإيديولوجيا أحد المفاهيم المحورية في التحليل الثقافي للخطاب، وذلك لما تقدمه من فهم للواقع الاجتماعي، فأخذت تحظى باهتمام النقد الثقافي. فضلاً عن إسهامها في إقامة العلاقات الاجتماعية غير المتكافئة والمرتبطة بالسلطة وما تفرضه من سيطرة على الطبقات الاجتماعية واستغلالها، والهيمنة عليها.

الكلمات المفتاحية : (سلطة، إيديولوجيا، هوية، هيمنة، تفسير، مركزية).

مقدمة :

تسعى الإيديولوجيا إلى أن تقدم تفسيراً شاملاً للظواهر الاجتماعية داخل المجتمع، بحيث يكشف هذا التفسير عن طبيعة الممارسات الإيديولوجية القائمة على الإقصاء والتهميش، وما تستند عليه من افتراضات مسبقة تؤكد ما تحاول الإيديولوجيا تفسيره^(١) من خلال الأفراد داخل الطبقات الاجتماعية.

المحور الأول : الإيديولوجيا.

تعد الإيديولوجيا أحد الوسائل المهمة التي توظفها الدولة في إدارة مؤسساتها، وتطبيق أنظمتها السياسية على الأفراد والجماعات الخاضعة لها، الأمر الذي يؤدي إلى تعرض هؤلاء الأفراد إلى القمع والاضطهاد؛ نتيجة للممارسات الإيديولوجية المفروضة عليهم من قبل أفراد السلطة الحاكمة، مما يؤدي إلى خروجهم وإعلان رفضهم للأوضاع السياسية والاجتماعية التي وجدوا أنفسهم عليها، محاولين في الوقت نفسه تغيير هذه الأوضاع سواء أكان ذلك عن طريق اللجوء إلى استخدام القوة أم التفاوض مع السلطة المركزية التي عملت على مصادرة حقوقهم، مما اضطرتهم إلى الخروج عليها ومقاومة أجهزتها الإيديولوجية، بهدف الحد من استبدادها. إلا أن هذه الجماعات الراضية لممارسات السلطة تحاول أن تبرر سبب خروجها ومقاومتها للسلطة، كاشفة في الوقت نفسه عن الظلم الذي لحقها من قبل أفراد السلطة الحاكمة، فكان سبباً في خروجهم عليها، وهذا ما تكشفه هذه الحكاية التي رواها التنوخي، قائلاً: " وحدثني أبي رضي الله عنه، قال: لما كنت مقيماً بالكرخ، أتقلد القضاء بها، وبالمرج وأعمالها، كان بوابي رجل من أهل الكرخ، له ابن، هو بن عشر سنين أو نحوها، وكان يدخل داري لا أذن، ويمرح مع غلماني، وأهب له في الأوقات دراهم وثيراً، وأحمله وأرقصه، كما يفعل

الناس بأولاد غلمانهم.

ثم صرفتُ عن الكرخ، ورحلتُ، ولا أعرف للرجل ولا لولده خبراً.
ومضت السنون، فأنفذني أبو عبد الله البريدي من واسط، برسالة إلى أبي
بكر بن رائق، فلقيته بحدود العاقول، وانحدرت أريد واسطاً.
وقد كان قيل لي قبل إصعادي، أن في الطريق لصاً يعرف بالكرخي،
مستفحل الأمر.

وكنت خرجت من واسط، بطالع اخترته، على موجب تحويل مولدي
لتلك السنة، وقد استظهرت عند نفسي، وكفاني الله تعالى - في إصعادي - أمر
اللص، فلم أر له أثراً.

فلما انحدرت إلى واسط، وكنا في بعض الطريق، خرج علينا اللصوص في
سفن عدة، بقسي، ونشاب، وسلاح شاك، وهم نحو مائة نفس، كالعسكر
العظيم.

وكان معي غلمان يرمون، فحلفت أن من رمى منهم بسهم، ضربته إذا
صرت في البلد مائة مقرعة، وذلك أنني خفت أن يقصدنا اللصوص، ثم لا
يرضون إلا بقتلي.

قال: وبادرت فأخذت ذلك السلاح الذي كان معهم، فرميت جميعه في
الماء، واستسلمت للأمر طلباً للسلامة.

﴿...﴾

فأنا كذلك، وإذا بسفينة فيها رئيسهم قد طرح على الزبزي (❖) كما يطرح
على سفن التجار، ليشرف على ما يؤخذ منها.

فحين رأي، منع أصحابه من انتهاب شيء من زبزي، وصعد إليّ وحده،
فتأملني طويلاً، ثم انكبّ وقبل يدي، وكان متلثماً، فلم أعرفه.
قال: فارتعت، وقلت: يا هذا ما لك؟

فسفر، وقال: أما تعرفني يا سيدي؟ فتأملت، وأنا جزع، فلم أعرفه.
فقلت: لا والله.

فقال: بلى، أنا عبدك، ابن فلان الكرخي حاجبك، وأنا الصبي الذي
ربيتني في دارك، وكنت تحملني على عنقك، وتطعمني بيدك.
فتأملت، فإذا الخلقة خلقتها، إلا أن اللحية غيرته في عيني، فسكن خاطري،
وقلت: يا هذا، كيف بلغت إلى هذا؟

قال: ياسيدي، نشأت فلم أتعلّم غير معالجة السلاح، وجئت إلى بغداد
أطلب الديوان، فما قبلني أحد، فانضاف إلي هؤلاء الرجال، وطلبت قطع
الطريق ولو كان السلطان أنصفني، ونزلني بحيث أستحق من الشجاعة،
وانتفع بخدمتي، ما كنت أفعل هذا بنفسي.

قال: ثم فأقبلت عليه أعظه ﴿...﴾
ثم قال: يا سيدي، لا يكون بعض هؤلاء قد أخذ منك شيئاً؟
قلت: ما ذهب منا إلا سلاح رميته أنا إلى الماء، وشرحت له
الصورة ﴿...﴾.

فصعد إلى الشطّ، وأصعد جميع أصحابه، ومنع أن يؤخذ شيء من باقي
السفن، فما تعرّض لها أحد، وردّ على قوم ضعفاء أشياء كثيرة كانت أخذت
منهم، وأطلق الكار.

وسار معي في أصحابه، إلى أن صار بيني وبين المأمن شيء يسير ثم
ودّعني، وانصرف في أصحابه." (٢)

تكشف هذه الحكاية عن طبيعة الأوضاع السياسية، والظروف الاجتماعية
السيئة؛ نتيجة لسوء توظيف السلطة من قبل القائمين عليها واستغلالهم
لمواقعهم السياسية، واستبدادهم في تطبيق الأنظمة السياسية الجائرة بحق
الطبقات الاجتماعية التي كانت سبباً في خروج بعض الأفراد وتمردهم على
الأنظمة السياسية والاجتماعية ومقاومة السلطة، بهدف استعادة حقوقهم

والاعتراف بوجودهم.

إذا يفسر ابن الكرخي سبب خروجه على السلطة ومقاومتها والانتقام من الموالين لها؛ نتيجة لما لحقه من ظلم من قبل السلطان الذي لم ينصفه، فهو بعد أن جاء لبغداد بهدف طلب العلم والمعرفة لم يلق ترحيباً من قبل السلطة والطبقة الموالية لها، كونه ينتمي إلى طبقة العبيد، وهي تمثل "في الثقافة العربية الخدمة والعبودية والانحطاط"^(٣)، فكانت مكانته الاجتماعية سبباً في الإقصاء الذي تعرض له، فلم تتمكن الدولة من احتوائه، نتيجة لسياسة الفرز الثقافي التي عملت السلطة على تطبيقها، بهدف تقسيم المجتمع إلى طبقات متعددة، تمهيداً للهيمنة عليه.

إلا أنه سعى إلى نقد السلطة والكشف عن طبيعة الممارسات الإيديولوجية التي تواجه بها أفراد المجتمع. فهؤلاء الأفراد لو أن السلطان قد أنصفهم، لما اضطروا للخروج عليه ومقاومته، وهنا يأتي دور الإيديولوجيا التي تأخذ "دور الوسيط"^(٤) بين الجماعات المتمردة ودكتاتورية السلطة، إلا أن ميل الإنسان إلى الإيديولوجيا يؤكد على أنه قد تعرض للظلم والاضطهاد؛ نتيجة للممارسات الإيديولوجية القائمة على الإقصاء والتهميش، فيضطر الإنسان معها إلى اللجوء للإيديولوجيا في محاولة منه لإيجاد إيديولوجيا مضادة لتقف بالضد من الإيديولوجيا السائدة والحد منها؛ لأنه عندما "لا تشبع حاجات الإنسان ولا تتحقق أهدافه تحت النظام القائم يجد الإيديولوجيا السائدة غير كافية لتفسير تجربته أو تبرير ظروفه، إنه لم يعد يقبلها فهذا الإنسان الواعي بالاضطهاد والاستغلال، يكون ساخطاً على هذا الحاضر وخائفاً من المستقبل يتجه إلى الإيديولوجيات المنبثقة أو التي تستعيد نشاطها والتي يرى فيها صورة لحياة أفضل"^(٥)، لذلك فهو يتخذ من الإيديولوجيا سلاحاً له لتحقيق أهدافه، من أجل تغيير واقعه الاجتماعي الذي لم يعد قادراً على العيش فيه؛ بسبب السلطة وممارساتها الإيديولوجية التي تسعى من خلالها إلى الهيمنة عليه.

إلا أن هذه الصراعات الإيديولوجية بين السلطة السياسية والجماعات المناهضة لها، ليست تعبيراً عن عوامل غير عقلانية، وإنما هي نتيجة للقمع الذي تتعرض له هذه الجماعات الخاضعة للسلطة وهيمنتها. إذ أسهم في وجود هذه الصراعات مجموعة من الممارسات السياسية والاجتماعية التي كانت سبباً في تشكيل الوعي الجمعي للأفراد داخل الطبقات الاجتماعية، الأمر الذي أوجد نوعاً من التعدد الإيديولوجي داخل المجتمع الواحد، فكان مخرجاً للإيديولوجيات^(٦) المتصارعة التي يتبناها كل طرف من الأطراف المتنازعة لتفسير وتبرير طبيعة هذه الصراعات بين السلطة السياسية والأفراد المناهضين لها من داخل الطبقات الاجتماعية الخاضعة لها، مما يكون سبباً في فقدان السلطة لسيطرتها، فلم تعد قادرة على فرض هيمنتها على المجتمع وطبقاته المتعددة، الأمر الذي يفرض نوعاً من التفاوض فيما بين هذه الإيديولوجيات المتصارعة حول السلطة والهيمنة. وفي هذه الحالة لم يبق أمام أفراد السلطة الحاكمة إلا أن يقبلوا بالوضع السياسي الجديد من أجل استمرارهم في نظام الحكم وإقامة علاقات جديدة مع هذه الفئات الاجتماعية المختلفة، ولكن مع ذلك سوف تبقى علاقاتها "علاقات صراع في جميع الأحوال" إلا أن العلاقة الخاصة بين الإيديولوجيا وممارسة السلطة «تكون» من خلال الرضى لا من خلال القصر^(٧) وهذا يؤكد على وجود نوعاً من التفاوض فيما بين القوى المتصارعة، وبهذا تشكل الإيديولوجيا منظومة من الأفكار التي تدرك من خلالها طبيعة العلاقات القائمة بين السلطة والطبقات الاجتماعية، بحيث تفهم هذه العاقات وتُفسر على وفق رؤية كل طرف من الأطراف المتنازعة، فهي تشكل إطاراً مرجعياً^(٨) تستمد منه الجماعات المناهضة للسلطة معارفها وتفسيراتها ذات الطابع الإيديولوجي الذي تريد أن تصل من خلاله إلى تحقيق أهدافها السياسية والاجتماعية المختلفة.

لهذا نجد أن ابن الكرخي قد تحول إلى قاطع للطريق وسافك للدماء، بفعل

السلطة وممارساتها القمعية بحق أفراد المجتمع الذين رفضوا سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية التي وجدوا أنفسهم عليها، إلا أنهم لم يجدوا غير الهامش ملاذاً لتنظيم صفوفهم استعداداً لمواجهة السلطة، أو التفاوض معها في محاولة لدفعها إلى الاعتراف بوجودهم، الأمر الذي يمكنهم من استعادة حقوقهم. الأمر الذي يؤدي إلى وجود نوع من التوازن الاجتماعي فيما بين الإيديولوجيات المتصارعة.

إلا أن الإيديولوجيا تحاول أن تركز وجودها داخل كل فكرة مهما كانت بسيطة لتجعل منها أداة لتحقيق أهدافها على يد أصحابها، ولهذا فإن كل ما يصدر عنها يعكس مقاصدها الإيديولوجية مهما اتخذت هذه الفكرة لنفسها الوجهة التي تفسر بها الظواهر الاجتماعية، فالإيديولوجيا إذن لازمة للظواهر، ومن دونها لا يمكن للفكر أن يشتق سبيله إلى الممارسة الإيديولوجية لكي يصبح كياناً^(٩) قادراً على مواجهة السلطة بطرائق وأساليب مختلفة لدفعها على تغيير سياساتها القمعية من أجل إقامة علاقة متكافئة بينها وبين الطبقات الاجتماعية، وهذا ما تؤكد هذه الحكاية التي أوردها التنوخي قائلاً: " وحدثني عبد الله بن عمر بن الحارث الواسطي السراج، المعروف بأبي أحمد الحارثي، قال :

كنتُ مسافراً في بعض الجبال، فخرج علينا ابن سباب الكردي، فقطع علينا، وكان بزي الأمراء، لا بزي القطّاع. فقلتُ له: فخرجتُ منه لأنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يدل على فهم وأدب، فداخلته فإذا برجل فاضل، يروي الشعر، ويفهم النحو، فطمعت فيه، وعملت في الحال أبياتاً مدحته بها.

فقال لي : لست أعلم إن كان هذا من شعرك، ولكن اعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً، لأعلم أنك قلته، وأنشدني بيتاً. قال: فعملت في الحال اجازة له ثلاثة أبيات.

فقال لي: أي شيء أخذ منك؟ لأردّه إليك.
قال: فذكرت له ما أخذ مني، وأضفت إليه قماش رفيقين كانا لي.
فردّ جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها، كيساً فيه ألف درهم فوهبه لي.
قال: فجزيته خيراً، ورددته عليه.
فقال لي: لم لا تأخذه؟ فوريت عن ذلك.
فقال: أحب أن تصدقني.
فقلت: أنا آمن؟
فقال: أنت آمن.
فقلت: لأنك لا تملكه، وهو من أموال الناس الذين أخذتها منهم الساعة ظلماً، فكيف يحلّ لي أن أخذه؟
فقال لي: أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص، عن بعضهم، قال: إن هؤلاء التجار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم- وإن كرهوا أخذها- كان ذلك مباحاً لهم، لأنّ عين المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء يستحقّون أخذ الزكاة، بالفقر، ساء أرباب الأموال أم كرهوا.
فقال: لا عليك، أنا أحضر هؤلاء التجار الساعة، وأريك بالدليل الصحيح أن أموالهم لنا حلال.
ثم قال لأصحابه: هاتوا التجار، فجاءوا.
فقال لأحدهم: منذ كم أنت تتجر في هذا المال الذي قطعنا عليه؟
قال: منذ كذا وكذا سنة.
قال: فكيف كنت تخرج زكاته؟ فتلجلج، وتكلّم بكلام من لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يخرجها.
ثم دعا آخر، فقال له: إذا كان معك ثلثمائة درهم، وعشرة دنانير، وحالت عليك السنة، فكم تخرج منها للزكاة؟ فما أحسن أن يجيب.

ثم قال لآخر: إذا كان معك متاع للتجارة، ولك دين على نفسك، أحدهما مليء، والآخر معسر، ومعك دراهم، وقد حال الحول على الجميع، كيف تخرج زكاة ذلك؟

قال: فما فهم السؤال، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب. فصرّفهم، ثم قال لي: بان لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ؟ وأن هؤلاء التجار ما زكّوا قط؟ خذ الآن الكيس. قال: فأخذته، وساق القافلة لينصرف بها. فقلت: إن رأيت أيها الأمير أن تنفذ معنا من يبلغنا المأمّن، كان لك الفضل.

ففعل ذلك". (١٠)

يكشف النص عن طبيعة الإيديولوجيا وكيفية تمثيلها في الفكر المناهض للسلطة سواء أكانت سياسية أم دينية، فهو يسعى إلى تبرير مواقفه منها، كاشفاً في الوقت نفسه عن سوء توظيفها من قبل القائمين عليها، لذا تصبح "الإيديولوجيا بهذا المعنى مكون أساسي من مكونات أي مجتمع. فالتناس في المجتمع الواحد لا تجمعهم فقط الأرض التي يحبون عليها، أو السلطة التي يخضعون لها، بل تجمعهم كذلك ثقافة واحدة أو متماثلة" (١١)، وهذا ما سعى إليه ابن سبّاب الكردي الذي لم يكن قاطعاً للطريق، وإنما أرد من وراء فعله هذا تطبيق نوع من الثقافة الإسلامية، بعد أن يأخذ دور رجال الدين الذين لم يأخذوا دورهم الفعّال في تطبيق الشريعة الإسلامية التي حاول تطبيقها على مجموعة من التجار الذين لم يزكوا أموالهم حتى يخرجوا منها حق الفقراء والمساكين، هذا من جهة. فضلاً عن أنه لم يخرج عليهم بزي اللصوص وقطاع الطريق من جهة ثانية، وإنما خرج بزي الأمراء ليأخذ دور الخليفة الديني في تطبيق التعاليم الإسلامية التي توجب إخراج الزكاة حقاً يؤدي للفقراء، الأمر الذي يكون سبباً في وجود نوع من التعايش والاستقرار فيما بين أفراد المجتمع.

فكان خروجه بزيّ الأمراء تأكيداً منه على أنه لم يخرج لغرض اللصوصية أو السلب والنهب، وإنما لإقامة العدل بين أفراد المجتمع على وفق الشريعة الإسلامية بعد أن عجزت السلطة عن إقامته، نتيجة لفشلها في إدارة شؤونها، وسيطرة الآخر عليها.

إن هذه الإيديولوجيا التي تبناها ابن سباب الكردي وسعى إلى تطبيقها على وفق وجهة نظره الإيديولوجية ذات الصبغة الإسلامية، لم يكن هدفه منها أن يبرر كيفية خروجه وقطعه لطريق التجار، وسبب محاسبته لهم، وإنما أراد من وراء ذلك أن يُعيد إحياء السنة التي رأى أنها قد أصبحت من الأمور غير المعمول بها من قبل أفراد السلطة الحاكمة، ولاسيما الخليفة كونه الأمين عليها، والراعي الأول لها، وذلك لتعدد سلطاته وتداخلها بين السياسية والدينية، فكان من الأولى به أن يعمل على تطبيق الواجبات الدينية، ولاسيما على الذين تنطبق عليهم، من أجل العدالة الاجتماعية، والعمل على إيجاد نوع من الحياة المشتركة بين أفراد المجتمع.

المحور الثاني

تعدد الإيديولوجيات

إن تعدد الإيديولوجيات يؤدي إلى نقد السلطة ورفض ممارساتها، ولكن الخروج عليها يتطلب وجهات نظر متعددة، يحاول من خلالها أصحاب الفكر المناهض للهيمنة أن يشكلوا أفكارهم على وفق إيديولوجيا نسقية أو أنساق إيديولوجية تمكنهم من الوصول إلى أهدافهم وتحقيقها؛ لأن النسق الثقافي هو من "يتحكم في الأفعال والأفكار المستقبلية لأبناء الجماعة المتمثلة لهذا النسق الثقافي، «فضلاً عن» إن للنسق الثقافي جانب مزدوج: فهو من ناحية إطار يعمل لاستيعاب وفهم وتفسير التجربة الإنسانية، أي إنه يقدم معنى للعالم وللحياة فالدين مثلاً يجعل الحياة أقل عسراً للفهم... فهو يجعل الغريب

معروفاً واللامنطقي والشاذ طبيعياً، وكذلك تفعل الإيديولوجيا^(١٢)، إلا أنها تشتغل على وفق وجهات نظر نسقية، أي أنها تمثل نسقاً ثقافياً من الدرجة الثانية؛ وذلك لأن أصحابها لا يوجهون السلطة وأجهزتها القمعية بصورة مباشرة، وإنما يؤسسون وجهات نظرهم الإيديولوجية على أنساق ثقافية مؤدجلة وسابقة كالدين مثلاً، لكي تشتق لها تفسيرها الخاص الذي يمكنهم من نقد السلطة ورفض هيمنتها^(١٣)، وهذا ما فعله ابن سباب الكردي، فتمكن من التعبير عن وجهة نظره تجاه الواقع السياسي والاجتماعي وما يحدث فيه من ممارسات إقصائية من قبل أجهزة الدولة الإيديولوجية.

وأحياناً يكون التعبير عن وجهة النظر الشخصية تجاه الواقع الاجتماعي تعبيراً موثقاً، من خلال مشاهدة كل ما يحدث في واقع الحياة اليومية، وبهذه الحالة يكون الراوي شاهداً تاريخياً على عصره، وهذا ما يؤكد هذا الخبر الذي أورد الآبي، محاولاً من خلاله أن يكشف عن طبيعة الأوضاع الاجتماعية السيئة التي وصل إليها أفراد المجتمع، قائلاً: "وشاهدتُ أثنين أحدهما من أواسط الناس والآخر من فقرائهم: أما الأول فكان يجوع ويطعم، ويعرى ويكسو، ويتكسب بالتصرف فيلبس القميص المرقوع ويركب الدابة الضعيف، لا زوجة له ولا ولد ولا عبد، ويصرف ما يحصله في معونة الناس وإرفادهم وإطعامهم، وأما الثاني فرجلٌ ضعيف يجتدي الناس في الأسواق ويسألهم، ويجمع ذلك فينفقه على المحبوسين: ويطعمهم ويسقيهم ويداوي مرضاهم، ويضع الأجاجين على الطرق يملأها ثريداً، ويدعو الفقراء إليها، وهو بقميص متخرق مكشوف الرأس، لا يعود على نفسه مما يحصله إلا ببلغته، وفي أحد الأيام رأيت أنه من واجبي أن أعرف خبره، فجلست أنتظره، فهو قد اعتاد على عمله هذا في كل يوم، فخرجت من الدار وتوجهت إليه، فوجدته وقد أجمع حوله مجموعة من الفقراء وهو يطعم بعضهم بيده، فجلست بالقرب منه، فلم يتكلم معي، إلا بعد أن أنهى من إطعام من كان جالساً حوله من

الفقراء، ثم ألتفت إليّ قائلاً ماذا تريد أن تعرف؟
ثم قال : تريد أن تعرف لماذا أنا أقضي كل وقتي في خدمة هؤلاء، وقد
أشار إلى مجموعة من الفقراء وكانوا على مقربة منه.
قلت له : نعم أحب أن تخبرني.
قال لي : وهو ينظر لهم، أن هؤلاء لو وجدوا سلطاناً عادلاً، يسهر من
أجل أن يخدم رعيته، وي بذل جهداً في تفقد أحوالهم، بدلاً من انشغاله في
الدنيا وملذاتها، لما وجدتنا هنا وفي هذه الحالة.
وذهب ليبحث عن مجموعة أخرى من الفقراء، وهو حافي القدمين، فهذا
ومن سلك طريقه يستحق اسم الكرم"^(١٤).

تسعى الإيديولوجيا التي تعتنقها السلطة الحاكمة والمهيمنة على الطبقات
الاجتماعية إلى تبرير الأوضاع السياسية والاجتماعية والحفاظ عليها، من أجل
استمرارها في نظام الحكم، فلم يتردد أصحاب هذه الإيديولوجيا في ممارسة
العنف بأنواعه المختلفة وقمع الأصوات المناهضة لهم؛ نتيجة لممارساتهم
الإيديولوجية، بالمقابل يولد هذا القمع الإيديولوجي المنهج إيديولوجيات
أخرى مناهضة لإيديولوجيا السلطة المركزية وأجهزتها القمعية، حيث تعمل
هذه الإيديولوجيات على نقد السلطة والكشف عن فسادها؛ نتيجة لفساد
القائمين عليها، واستغلالهم لمواقعهم، وسوء توظيفهم للسلطات خدمة
لمصالحهم على حساب الطبقات الاجتماعية الأخرى، ولم يقتصر دورها على
نقد السلطة وسياساتها فقط، وإنما إصلاح العلاقات الاجتماعية، وبيان مدى
قوة ترابطها فيما بين الأفراد الخاضعين لهيمنة السلطة، والعمل على إقامة
علاقات إيديولوجية متكافئة، بين الطبقات الاجتماعية.

يكشف النص عن طبيعة الأوضاع الاجتماعية السيئة التي وصل إليها
أفراد المجتمع، إذ يرتبط وقوع تشكيل النص بزمن المؤلف، وبهذا قد أكتسب
واقعيته من خلال ارتباطه المباشر به. وهنا يظهر لنا بصفة الراوي ((العليم))،

من خلال الوظيفة ((السردية)) التي عبر عنها جيرار جينيت نصياً بـ: "أنا أحكي.."^(١٥) إلى جانب وظيفة الشهادة أو (الاستشهادية / التوثيقية)^(١٦)، فضلاً عن أننا نستدل على حقيقة هذه الأحداث وواقعيتها من خلال كلامه ((شاهدت))، وبهذا فهو يوظف أكثر من وظيفة للتعبير عن وجهة نظره من أجل الوصول إلى غايته الأساسية وهي تصوير الواقع الاجتماعي من النواحي كلها، فنجد أنه قد استعمل وظيفة الكشف "وهذا الكشف إما أن يكون لسلوك أخلاقي معين، أو لحقيقة غير ظاهرة، أو التعرف على شخصية"^(١٧).

إذ كانت الشخصية الأولى من أواسط الناس وفقرائهم، فكشفت عن طبيعة الأوضاع الاجتماعية وما كان يعاني منه أفراد المجتمع تحت سيطرة الدولة العباسية وأجهزتها القمعية وما تفرضه من هيمنة إيديولوجية، وقد بين كيف أن هذا الفقير يرتدي القميص المرقوع ويركب الدابة الضعيفة، ومع كل ما يعانيه من شظف العيش، إلا أنه كان ينفق كل ما يملكه في مساعدة الناس وإطعامهم، وهذا ما حاولت وجهة النظر الشخصية أن تؤكد وترسم مظاهر السخاء والإيثار والتضامن فيما بين أفراد المجتمع، وتكشف عن طبيعة التكافل الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعية.

أما الشخصية الثانية، فهي نفسها الشخصية الأولى، التي أختارها لتمثل (الهامش / المجتمع) بالكامل، فحاول عن طريقها أن يصور لنا الحالة التي وصل إليها أفراد المجتمع، فبعد أن كانت هذه الشخصية قادرة على التكسب وتدبير أمور حياتها، حولتها سوء الأوضاع الاجتماعية إلى (الكدية)، فالرجل الثاني ضعيف يجتدي الناس... لكي ينفق كل ما يملكه على السجناء ويسد احتياجاتهم من مأكّل وملبس ويداوي مرضاهم... ويطعم الفقراء وهو بقميص متخرق بعد أن كان مرقوعاً فضلاً عن أنه مكشوف الرأس، وحافي القدمين^(١٨).

وبناءً عليه نرى بأن وجهة النظر الإيديولوجية قد أدت دورها في الكشف

عن طبيعة الأوضاع الاجتماعية، إذ تمكن الهامش من إيصال رسالته بعد أن فسر سبب تصرفاته، فهو قد أخذ دور السلطة ووظيفتها في إدارة شؤون الرعية، مؤكداً على انشغال السلطان بالدنيا وملذاتها، فتمكن من خلال تفسيره للأوضاع الاجتماعية الراهنة من نقد السلطة وأنظمتها السياسية التي لم تعد قادرة على إدارة شؤون رعيته.

لذا كانت نظرتة إلى الوقع السياسي والاجتماعي قائمة على موقفين أحدهما: موقف خاص تجاه السلطة والمجتمع، وثانيهما: عام تجاه الحقائق التاريخية والاجتماعية التي كشف من خلالها عن الامكانيات كلها، والحدود الكامنة فيها لبيان طبيعة حياة الأفراد. فكانت هذه المدونات الكبرى نتاج تلك الأنظمة الإيديولوجية الحاكمة ذات الأهواء المتعددة، التي تحكم المجتمع وتطلعاته؛ لذا كان من نتائجه التاريخية والاجتماعية ظهور هذه المدونات التي يعبر من خلالها الكتاب عن وجهات نظرهم في محاولة منهم لإيجاد حل لمشاكل المجتمع وأزماته^(١٩)؛ لذلك تظهر لنا الإيديولوجيا التفسيرية بوصفها شكلاً من أشكال المعرفة عند الفئات الاجتماعية المقموعة من قبل السلطة الحاكمة.

إذ تؤدي الإيديولوجيا أحياناً دوراً كبيراً في إعادة إنتاج ما يحدث في الواقع على وفق وجهات نظر أصحابها، حيث يروي لنا المؤلف بعض الأحداث التي كان شاهداً عليها؛ وذلك من خلال موقعه، لذا فهو لا يتخلى عن هذا الموقع الذي يروي من خلاله ما رأى بطريقة إيديولوجية متوارياً خلف شخصيات ثانوية، ولكن هذا ليس بمعنى النقل والتكرار، وإنما إعادة الإنتاج، فيعيد تركيب الأحداث مرة أخرى وعلى وفق وجهة نظره^(٢٠)، هذا فضلاً عن هيمنة الوظيفة (الإيديولوجية) التي يحاول من خلالها إيصال رسالته وتحقيق أهدافه، فوظفها لإعادة إنتاج العلاقات المتكافئة بين أفراد المجتمع، إذ تكشف لنا القوانين الداخلية للنص عن الاتجاه الفكري الذي تدعو إليه وجهة النظر^(٢١)، عن طريق الوظيفة الإيديولوجية أي النشاط التفسيري للراوي، ولاسيما بعد

أن تبوء المكانة المركزية، فأصبح صاحب السلطة العليا في النص فتمكن من التعبير عن أفكاره ومشاعره الخاصة تجاه الأوضاع الاجتماعية كلها^(٢٢). من هنا يمكن أن تعد وجهات النظر الإيديولوجية رسائل سعى أصحابها إلى إيصالها للسلطة والقائمين عليها، بطرائق وأساليب مختلفة، بهدف نقد السلطة وأنظمتها السياسية الجائرة بحق رعيته، وحثها على تغيير سياساتها القمعية والحد من هيمنتها، والعمل على إيجاد علاقات متكافئة بينها وبين أفراد المجتمع، لذلك تشكلت النظر، ولاسيما عند الفئات المناهضة للسلطة على وفق أنساق ثقافية مؤدلجة؛ لأن من الوظائف الأساسية للنسق الثقافي هو "الوظيفة التحكمية في سلوك الأفراد، بحيث يكون الفرد محكوماً بالتصرف على وفق ما يمليه عليه النسق الثقافي الذي يؤمن به"^(٢٣)، لذلك جاءت وجهات النظر على وفق رؤى نسقية متجذرة في التكوين الاجتماعي للأفراد داخل المجتمع.

لذا كانت وجهات النظر الإيديولوجية تهدف إلى الكشف عن طبيعة الأوضاع السياسية الاجتماعية، وذات مقاصد متعددة، فجاءت مبثوثة في نصوص وخطابات عدت ووثائق تاريخية على عصر اختلفت فيه موازين القوى؛ نتيجة لاحتدام الصراع الإيديولوجي بين المركز والهامش، فكانت ووثائق مؤدلجة لجهة على حساب الأخرى، فكان الهدف واضحاً منها، بعد أن صور لنا الحياة الاجتماعية وما كان يعاني فيه المجتمع من ظلم وحرمان، الأمر الذي أدى بأفراده إلى الخروج والكشف عن المسكوت عنه ونقد السلطة وأجهزتها القمعية، ورفض أشكال الهيمنة كلها.

تتبوأ الإيديولوجيا مكانة مركزية في الخطاب، على الرغم من تعدد الإيديولوجيات وتفسيراتها، لذلك فهي تتداخل مع الحركات الاجتماعية كمنظومة من الأفكار السياسية التي يتمكن من خلالها الفكر المناهض للسلطة من تقديم وجهة نظره الإيديولوجية من أجل تحقيق أهدافه الذاتية، كاشفاً في

الوقت نفسه عن طبيعة ذلك الصراع الإيديولوجي المستمر بين المركز والهامش من أجل التسلط والهيمنة. ولكن أحياناً تظهر الإيديولوجيا بشكل صريح ومباشر لتكشف عن اختلاف الرؤى للأطراف المتصارعة، وهذا ما يكشفه هذا الخبر الذي أورده الآبي قائلاً: " قال معاوية لأبي الأسود: بلغني أن علياً أراد أن يدخلك في الحكومة، فعزمت عليك أي شيء كنت تصنع؟ قال: كنت أتى المدينة فأجمع ألفاً من المهاجرين وألفاً من الانصار، فإن لم أجدهم تمتهم من أبنائهم، ثم أستحلفهم بالله العظيم: المهاجرون أحق أم الطلقاء؟ فتبسم معاوية وقال: إذن والله ما اختلف عليك اثنان" (٢٤).

تسعى إيديولوجيا السلطة للكشف عن وجهات نظر خصومها، ولا سيما السياسيين، فكان سؤال معاوية لأبي الأسود الدؤلي لم يكن سؤالاً عابراً، وهذا ما أدركه الدؤلي فكان موقفه واضحاً تجاه معاوية، فقام بإعادته إلى الورا قليلاً ليذكره بتاريخه من أجل تعزيز موقفه إزاء القضية التي أراد معاوية من ورائها معرفة نوايا أبو الأسود الدؤلي وما يدور بفكره تجاه بني أمية.

وهذا ما جعل النص يتضمن فكرة مركزية تكشف عن مدى ذلك الصراع السياسي في عصر قد اختلفت فيه القوى بين مؤيد ومعارض، لذا يمكن عد النص على وفق هذه الرؤية وغيرها بنية معرفية لا تفصل عن المقاصد الإيديولوجية لأبي الأسود الدؤلي، بعد أن ظهرت ملامحها بشكل واضح في بنية النص، الذي أكد فيه من خلال وجهة نظره الشخصية على مكانة المهاجرين وأحقيتهم بالحكم، مقابل أبناء الطلقاء الذين اغتصبوا الخلافة وعملوا على نشر الفساد بأنواعه المختلفة. ولهذا تكون الإيديولوجيا التفسيرية أحد الإيديولوجيات النقدية التي تعمل على إعادة إنتاج السلطة، والحد من ممارستها الإيديولوجية، من أجل إيجاد نوع من التوازن الاجتماعي، وإقامة علاقات متكافئة فيما بين المركز والطبقات الاجتماعية.

الخاتمة :

تمكنت السلطة من توظيف المرويات التاريخية توظيفاً أدبياً، لتتمكن من إعادة إنتاج الخطاب وتغيير وجهته التاريخية الخالصة في بعض الأحيان إلى وجهة أدبية مبنية على أسس ثقافية تحاول من خلالها أن تعرض الواقع الاجتماعي مبررة ممارساتها الإيديولوجية.

هوامش البحث

- الإيديولوجيا السياسية- دراسات في الإيديولوجيات السياسية المعاصرة، مالك عبيد، ومحمود محمد : ٦٦.

(❖) الزبب : وهو نوع من أنواع السفن التي كانت تستخدم سابقاً، ط : معجم المراكب والسفن في الإسلام، حبيب زيات : ٣٣٥-٣٣٦.

٢- الفرج بعد الشدة : ٤، ح : ٤٤٩ : ٢٣٤-٢٣٧.

٣- سرد الهامش- دراسة في كتاب الفرج بعد الشدة لأبي علي المحسن التنوخي (ت٣٨٤هـ)، رسالة ماجستير : ٩٧.

٤- منطق السلطة : ١٩١.

٥- الإيديولوجيا السياسية- دراسات في الإيديولوجيات السياسية المعاصرة : ٦٦.

٦- ط : المحرومون في العراق - هويتهم الوطنية واحتجاجاتهم الجمعية، دراسة في سيكلوجية الظلم، فارس كمال نظمي : ٣٥.

٧- اللغة والسلطة ، نورمان فيركلف، ت : محمد عناني : ٥٧-٥٩.

٨- ط : الإيديولوجيا السياسية- دراسات في الإيديولوجيات السياسية المعاصرة : ٧١.

٩- ط : الإيديولوجيا - دراسة في المصطلح والمفهوم وحقوق الاستعمال، محمد رضا : ٨.

١٠- الفرج بعد الشدة : ٤ / ح : ٤٤٨ : ٢٣١-٢٣٣.

١١- الإيديولوجيا - نحو نظرة تكاملية ، محمد سبيلا : ١٦.

١٢- تمثيلات الآخر- صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نادر كاظم : ٩٦-٩٧.

١٣- ط : م ، ن : ٩٧.

١٤- نثر الدر : ٣ / ١٥٦-١٥٧.

١٥- نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبشير، جيران جينيت وآخرون : ١٠١.

١٦- ط : مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقاً : ١٠٥.

- ١٧- الخبر في السرد العربي القديم – الثوابت والمتغيرات ، سعيد جبار: ١٦٥.
- ١٨- ظ: نثر الدر: ٣ / ١٥٧.
- ١٩- ظ: نقد السياسة – الدولة والدين ، برهان غليون : ١٥٩-١٦٢.
- ٢٠- ظ: الراوي- الموقع والشكل (دراسة في السرد الروائي)، يمينى العيد : ١٧٤.
- ٢١- ظ: الراوي والنص القصصي، عبد الرحيم الكردي: ٦٥.
- ٢٢- ظ: مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقاً : ١٠٦.
- ٢٣- تمثيلات الآخر- صورة السود في المتخيل العربي الوسيط : ٩٧.
- ٢٤- نثر الدر: ٥ / ٢١٥.

قائمة المصادر والمراجع

- اغتيال العقل – محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، برهان غليون، المركز الثقافي العربي،
- الإيديولوجيا – دراسة في المصطلح والمفهوم وحقوق الاستعمال، محمد رضا، تقديم: محمود حيدر، تعريب: أسعد مندي، النجف، العراق، العتبة العباسية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط١، ٢٠٢٠م.
- الإيديولوجيا – نحو نظرة تكاملية ، محمد سبيلا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.
- الإيديولوجيا السياسية- دراسات في الإيديولوجيات السياسية المعاصرة، مالك عبيد، ومحمود محمد، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، ط١، ١٤٢٥هـ.
- تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. كاظم نادر، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- الخبر في السرد العربي- الثوابت والمتغيرات، د. سعيد جبار، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ٤٠٠٤م.
- الراوي- الموقع والشكل (دراسة في السرد الروائي)، د. يمينى العيد، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٦م.
- الراوي والنص القصصي، د. عبد الرحيم الكردي، دار النشر للجماعات، ط٢، ١٩٩٦م.
- سرد الهامش – دراسة في كتاب "الفرج بعد الشدة" لأبي علي المحسن التنوخي"ت٣٨٤هـ"، فلاح رحيم،(رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٢١م.

الإيديولوجيا التفسيرية-هيمنة المركز وتعدد الإيديولوجيات.....(250)

- الفرج بعد الشدة، لأبي علي المحسن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق : عبود الشالحي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٥م.
- اللغة والسلطة، نورمان فيركلف، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٦.
- المحرومون في العراق - هويتهم الوطنية واحتجاجاتهم الجمعية، دراسة في سيكلوجية الظلم، فارس كمال نظمي، سلسلة دراسات فكرية، جامعة الكوفة للنشر، دار الرافين للتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٩م.
- مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقاً، د. سمير المرزوقي، ود. جميل شاكر، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد- العراق، ١٩٨٦م.
- معجم المراكب والسفن في الإسلام، حبيب زيات، الدار الحمراء لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.
- منطق السلطة- مدخل إلى فلسفة الأمر، ناصيف نصار، دار أمواج، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
- نثر الدر في المحاضرات، الوزير الأديب أبو سعد منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق: خالد عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- نظرية السرد من وجهة النظر إلى التثيير، جيار جينيت، وآخرون، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي، ط١، ١٩٨٩م.
- نقد السياسة - الدولة والدين، برهان غليون، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء- المغرب، ط٤، ٢٠٠٧م.